الهوية وجدل الخصوصية والكونية من خلال السنة النبوية

بقلم
د/ أكرم بلعمري (*)

ملخص

يستجلي هذا الموضوع معالم الهوية الإسلامية من خلال تتبع نصوص السنة النبوية المشرفة، وبيان معالمها من خلال الانتماء إلى الإسلام عقيدة وشريعة، والتميز بالخصوصية التاريخية للمجتمع المسلم، وكذا وحدته الثقافية، وهي عوامل كفيلة بضمان خصوصية الهوية الإسلامية، ووحدة المجتمع وتكافله.

الكلمات المفتاحية:

السنة النبوية؛ الهوية الإسلامية؛ الكونية؛ الخصوصية.

مقدمة

جرت حكمة الله ﷻ أن تكون رسالة الإسلام هي الخاتمة والمهيمنة على الرسالات السابقة، واقتضت حكمته تعالى خلق الناس مختلفين متباينين، يتمايزون فيما بينهم بالانتماء للإسلام عقيدة وشريعة، ومعيار التفاوت مرتبط بالتقوى، وجعل القرآن الكريم التعارف مبدأ عاما تنبني عليه العلاقات الإنسانية، والتعايش بين المسلمين وغيرهم حتمية حضارية، بيد أن الشريعة الإسلامية قد خصت هذه الأمة بخصائص تميزها وتسمح لها بالاندماج مع غير

(*) أستاذ محاضر قسم "أ" بقسم أصول الدين، معهد العلوم الإسلامية ـ جامعة الوادي ـ الجزائر.
akrambell19@hotmail.fr

تاريخ الإرسال: 15-04-2018 / تاريخ القبول: 2018/07/23

المسلمين وفق مقتضيات الشريعة. وفي الوقت ذاته تبقى محافظة على خصوصياتها الدينية، بحيث يمكنها أن تتوافق مع غير المسلمين، وفي الآن ذاته يمكنها التميز بخصوصيتها، وقد كان للسنة النبوية – بعد القرآن الكريم– تقرير وتبيين كثير من معالم الخصوصية التي تُميّز الشخصية الإسلامية، حيث تكسبها هوية ذاتية إيمانية لها خصوصيتها التي تعرف بها، وتمكنها من الاندماج الكوني مع مختلف الثقافات الأخرى غير الإسلامية.

من هنا نقف أمام إشكالية مفادها: كيف حافظت السنة النبوية على خصوصية هوية المجتمع المسلم، وما أثر ذلك على العلاقات الإنسانية؟ وما أثر عالمية المجتمع الإنساني على خصوصية الهوية الإسلامية؟ وما هي أهم معالم الهوية في المجتمع الإسلامي من خلال الهدي النبوي؟

لذا تأتي هذه المحاولة قصد استجلاء معالم الهوية الإسلامية، وبيان العلاقة الجدلية بين خصوصية هذه المعالم المشكلة للهوية الإسلامية وكونية المجتمع الإنساني، من خلال التالي:

المبحث الأول: دلالة الهوية والهوية الإسلامية.

يجري الحديث في هذا المبحث عن تعريف الهوية كمصطلح حادث، ومعرفة دلالاته اللغوية في كلام العرب، ثم بيان مدلوله الاصطلاحي، لنستخلص معنى الهوية الإسلامية كمصطلح مركب.

المطلب الأول: مفهوم الهوية

ينبغي تحرير هذا المصطلح ابتداء من كلام العرب، وبيان معناه.

أولا: الهوية لغة: الهوية بفتح الهاء هي موضع السقوط كما ورد في لسان العرب لابن

منظور قوله: "الهوية: موضع يهوي من عليه أي يسقط؛ يصف فوت الأمر وصعوبته بقوله عرش هوية"[1]، ... وهوية تصغير هوة، وقيل: الهوية بئر بعيدة المهواة.[2]

أما الهوية بضم الهاء فهي من الضمير (هو)، وهي مصطلح حادث لم تعرفه العرب في لغتها.

وقد ورد هذا اللفظ (هو هو) في حديث صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها قالت:" كنتُ أحب ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولدهما إلا أخذاني دونه، فلما قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة ونزل قباء غدا عليه أبي وعمي مغلسين، فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس، فأتيا كالين ساقطين، يمشيان الهوينى، فهششت إليهما كما كنتُ أصنع فو الله ما التفت إليَّ واحد منهما مع ما بهما من الغم، وسمعتُ عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي: أهو هو؟. قال: نعم والله، قال عمي: أتعرفه وتثبته؟ قال: فما في نفسك؟ أجاب: عداوته والله ما بقيت.[3]

وفي حديث عتبة بن عبد السلمي، أن رجلا، سأل رسول الله ﷺ كيف كان أول شأنك يا رسول الله؟. قال:" كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر فانطلقت أنا، وابن لها في بهم لنا، ولم نأخذ معنا زادا فقلت: يا أخي اذهب فأتنا بزاد من عند أمنا فانطلق أخي، وكنت عند البهم، فأقبل طيران أبيضان كأنهما نسران. فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم ...".[4] والشاهد من الخبرين السابقين هو قوله "أهو هو"، أي هو المقصود بجملة الصفات والميزات المذكورة عنه.

إذن فمصطلح الهوية من المصطلحات الحديثة في اللغة العربية، وهو مصطلح أفرزته الظّروف الاجتماعية العالمية، والعلاقات الحديثة بين المجتمعات المختلفة، ولذا لا نجد ذكرا له في كتب المتقدّمين، وخاصة أصحاب القواميس والمعاجم المتوسّطة في اللغة العربية، ومصطلح الهوية يقابل في اللغة الأجنبية كلا من مصطلح Nationalité

ومصطلح Identité[5]، اللّذان لهما نفس المدلول، والهوية في اللّغة العربية؛ اسم منقول من المصدر الصناعي هوية المأخوذ من كلمة "هو"[6]، وتعني الحقيقة المطلقة في الأشياء والأحياء، المشتملة على الحقائق والصّفات الجوهرية والثّابتة.[7]

ثانيا: الهوية اصطلاحا: عرف الجرجاني الهوية في كتابه (التعريفات) بالقول هي:"الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق".[8]

فهناك علاقة وطيدة بين التعريف اللّغوي لكلمة هوية، والتّعريف الاصطلاحي، والذّي نقصد به ؛ هوية الفرد، أو ما يميّزه عن الآخر سواء كان فردا ينتمي لحضارة غربية أم شرقية أم لحضارة عربية إسلامية، تتميز عن الأخرى بجملة من القيم تنفي التطابق مع غيرها.

فإذا كانت الهوية في اللّغة هي الحقائق الثّابتة في الأشياء والأحياء، فهي في الاصطلاح الشّفرة التّي يمكن للفرد عن طريقها أن يعرف نفسه في علاقته بالجماعة الاجتماعية التّي ينتمي إليها، والتّي عن طريقها يتعرّف عليه الآخرون باعتباره منتميا إلى تلك الجماعة.[9]

وهذه الشّفرة هي نتيجة عملية تفاعل مركّبة بين الإنسان الفرد من جهة، وبين مجتمعه وثقافته وتاريخه والبيئة الطبيعية والاجتماعية من جهة أخرى، على مدى زمني معقول،[10] ومن خلال عملية التّفاعل هذه، تتشكّل هوية مجتمع ما ، وتتكوّن الملامح الحقيقية له، التّي تنتقل في الغالب بالوراثة الاجتماعية داخل الجماعة وتظلّ محتفظة بوجودها وحيويتها بينهم[11]، حيث تمثّل في نهاية الأمر هذه الهويّة الوقود الذّي تنصهر فيه النّفوس، وتنسبك به السّجايا، وتتبلور فيه الشّخصية الهوية.

ومن خلال هذا التّعريف للهويّة، يمكن أن نستنتج عدّة عناصر، لابدّ منها في

تكوين هوية الإنسان أو الجماعة، ليحصل بها فيما بعد التميّز والاختلاف، وهذه العناصر تتمثّل في:

– إن العناصر المكونة للهوية لابدّ لها من فترة زمنية معقولة، لكي تتبلور وتتفاعل فيما بينها، فالتّاريخ المشترك للأفراد والجماعات سمة أساسية وجوهرية في تحديد معالم الهوية، وتحديد نقاط تميزها واختلافها.

– من العناصر المهمّة في تكوين الهوية، التراث الإبداعي للجماعة[12]، أو ما يصطلح عليه بالتّراث الثقافي، الذّي يشتمل بدوره على عدة عناصر منها: العادات والتّقاليد والدّين أو الأساطير، والمنظومة القيمية والأخلاقية.

– يعتبر كذلك الواقع الاجتماعي للجماعة، والذّي هو في مجمله الطّابع الذّي تتخذه الجماعة في حياتها نتيجة تفاعلها مع ما حولها من الواقع الطّبيعي والدّيني والقيمي والتّراثي، من أهمّ عناصر الهوية.

– إن الواقع الطّبيعي، أو الحيّز الجغرافي للجماعة، من أهمّ العناصر الضّرورية في تشكيل هوية الجماعة، إذ يعتبر بمثابة الإناء الذّي تتفاعل فيه كلّ العناصر السّابقة، بالإضافة إلى أنّه يلعب دورا كبيرا في صبغ طابع حياة الجماعة وفق ما تقتضيه تشكيلاته الجغرافية والطبيعية.[13]

المطلب الثاني: معنى الهوية الإسلامية

إذا كانت الهوية كما عرفها ابن حزم: " وَحَدُّ الهوية هو أن كل ما لم يكن غير الشيء فهو هو بعينه، إذ ليس بين الهوية والغيرية وسيطة يعقلها أحد البتة، فما خرج عن أحدهما دخل في الآخر ".[14]

تعني حقيقة الشخص أو الجماعة، وجملة ما يميزهما عن الآخرين من الصفات الجسمية والخَلقية والخُلقية والعقلية والنفسية، فما المقصود بالهوية الإسلامية؟

إن المعنى المراد بالهوية الإسلامية انطلاقا من تعريف الهوية السابق هو جملة

المحددات التي تميز الشخصية الإسلامية عن غيرها كالمعتقد الذي يمثل الخلفية الفكرية للمجتمع، وكالقيم التي ينضبط بها ذلك المجتمع من حيث الآداب والسلوك والأخلاق وغيرها.

ف" الهوية انتساب ثقافي... والهوية انتساب إلى معتقدات وقيم ومعايير معينة".[15]

وبالنظر إلى جملة ما يتميز به المجتمع الإسلامي من معتقدات وقيم ولغة وتاريخ، يمكن أن نستلهم معنى الهوية الإسلامية، أنها محصلة تفاعل الدين واللغة والتاريخ، وتأثر الفرد المسلم والجماعة المسلمة بهذه المقومات لتشكل بذلك هوية إسلامية متميزة بخصوصيتها من حيث الإسلام كدين وأساس تنصهر فيه سائر المحددات الأخرى.

وعليه فالهوية الإسلامية هي كل ما يميز المسلمين عن غيرهم من الأمم الأخرى، وقوام هويتهم هو الإسلام بعقيدته وشريعته وآدابه ولغته وتاريخه وحضارته المشتركة بين كل شعوبه على اختلاف قومياتها.[16]

المبحث الثاني : معالم الهوية الإسلامية من خلال السنة النبوية.

نعالج في هذا المبحث أهم المقومات التي تقوم عليها الهوية الإسلامية، متمثلة في الانتماء إلى الإسلام بعقيدته وشريعته، وكذا خصوصيته التاريخية المرتبطة بالإسلام، والوحدة الثقافية ونعني بها الارتباط بلغة القرآن والعادات الاجتماعية التي تنبثق من عمق هذه الشريعة.

المطلب الأول: الانتماء الإسلامي : العقيدة، الشريعة.

الهوية ترتكز أساسا على معتقدات الفرد ومسلماته الفكرية، بغض النظر عن مدى صدق هذه العقيدة أو خطئها، والهوية الإسلامية كغيرها تقوم على عقيدة توحيد الله تعالى، وهي الأساس الأول الذي يجمع بين كل المسلمين ويوحّدهم على هوية واحدة،

ولا عبرة باختلاف الانتماء القومي أو الوطني أو اللغوي، فكل من يعتقد بوحدانية الله تعالى ورسولية محمد ﷺ ويلتزم بمقتضيات التوحيد، فهو منتم إلى الهوية الإسلامية مهما كان عرقه ونسبه ونسبته، لقوله ﷺ كما في الحديث عن أبي نضرة، قال: حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق فقال:" يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى ".[17]

فأساس المفاضلة بين من ينتسب للهوية الإسلامية يقوم على معيار مدى الإيمان بالله تعالى وتحقيقه على مستوى الفكر والسلوك.

ومن منظور السنة النبوية على صاحبها أزكى الصلاة وأتم التسليم فإن الانتماء إلى أي هوية أخرى غير هذه الهوية يعد أمرا لاغيا بحكم عالمية هذا الدين، فقد روى مسلم بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله:"والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار".[18]

وقد حذر النبي ﷺ مرات عدة من خطورة الانسلاخ الحضاري والبعد عن الهوية الإسلامية وذلك بتقليد الهويات الأخرى، نظرا لتأثير الثقافات الوافدة على المجتمعات الإسلامية، بحكم الانفتاح الإعلامي على مختلف الهويات، مما يقتضي ضرورة التمسك بخصوصية الهوية الإسلامية والمحافظة عليها من الذوبان في الهويات الأخرى بدعوى العولمة وإزالة ما تتميز به الهوية الإسلامية، خاصة في ظل ضعف المجتمعات الإسلامية ونزعتها نحو تقليد الآخر، ففي حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال:" لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم ". قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى ؟،

قال:" فمن ".[19]

ومن مرتكزات الانتماء إلى الهوية الإسلامية الانتماء لشريعة هذا الدين والالتزام بما يميز الهوية الإسلامية من عبادات ومعاملات وقيم، لذا أولت السنة النبوية خصوصية للجانب التعبدي عند الشخصية الإسلامية من خلال تشريعات مخصوصة تعطي الخصوصية لهوية المسلم، ومن ذلك تشريع صفة الصلاة والصوم والحج، وغيرها من سائر المعاملات المالية المختلفة وتحريم كل ما يشوبها.

ولأجل ذلك نهى المصطفى ﷺ عن التشبه لأجل الحفاظ على الهوية الإسلامية في أبسط الأحوال، فعنه ﷺ قال: "ليس منا من تشبه بغيرنا، لا تشبهوا باليهود ولا بالنصارى، فإن تسليم اليهود الإشارة بالأصابع، وتسليم النصارى الإشارة بالأكف".[20]

ومن أمثلة الجانب التشريعي التي تبدي معالم الهوية الإسلامية في هذا الجانب، لما اهتم النبي ﷺ بما يجمع به المؤمنين للصلاة، ذكر له أمر اليهود والنصارى فامتنع عن ذلك لخصوصية المجتمع المسلم، فعن أبي عمير بن أنس عن عمومة له من الأنصار قال: اهتم النبي ﷺ للصلاة كيف يجمع الناس لها، فقيل له: انصب راية عند حضور الصلاة، فإذا رأوها آذن بعضهم بعضا، فلم يعجبه ذلك، قال: فذكر له القنع، يعنى شبور اليهود، فلم يعجبه ذلك. وقال: "هو من أمر اليهود"، قال: فذكر له الناقوس. فقال:" هو من أمر النصارى ". فانصرف عبد الله بن زيد وهو مهتم لهمّ رسول الله ﷺ، فأري الأذان في منامه، قال: فغدا على رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: يا رسول الله، إني لبين نائم ويقظان إذ أتاني آت فأراني الأذان، قال: وكان عمر بن لخطاب ﷺ قد رآه قبل ذلك، فكتمه عشرين يوما، قال: ثم أخبر النبي ﷺ، فقال له:" ما منعك أن تخبرني؟ فقال: سبقني عبد الله بن زيد، فاستحييت، فقال رسول الله ﷺ:" يا بلال، قم فانظر ما يأمرك به عبد الله بن زيد فافعله". قال: فأذن بلال.[21]

فكان الآذان بذلك سمة المجتمع الإسلامي، وميزة من مزاياه، يختلف عن بوق اليهود وناقوس النصارى.

ومن أمثلة الخصوصية التشريعية التي تحمل معنى المخالفة لما كان عليه اليهود والنصارى في تشريعاتهم، الصلاة في الخفاف والنعال، عن يعلى بن شداد بن أوس عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ:"خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم".[22]

ومن الأمثلة أيضا على هذه الخصوصية: النهي عن الاشتمال في الثوب في الصلاة[23]، والفصل في الصوم[24]، وتعجيل الفطر.[25] وكل هذه الشواهد الحديثية وغيرها تروم إلى بيان ميزات الانتماء للهوية الإسلامية في جانبيها العقدي والتشريعي، وهذه الميزات تضفي على هويتنا التميز ما يحفظ لنا جانب الخصوصية الدينية في الانتماء الى الإسلام كأعظم دين وأبلغ شريعة، قال تعالى:﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33)**﴾. (سورة فصلت).

المطلب الثاني : لخصوصية التاريخية.

الانتماء إلى الهوية الإسلامية يعني الانتماء إلى التاريخ الإسلامي بأمجاده وبطولاته، ويعني أيضا الانتماء إلى التاريخ الإنساني "كلكم لآدم وآدم من تراب"، غير أن الخصوصية التي تمتاز بها الهوية الإسلامية منفردة بذلك عن جميع الهويات والثقافات، هي الانتساب للنبي ﷺ، والانتساب إلى الرسول الكريم كقائد لهذه الأمة هو انتساب للإسلام مرجعية، تاريخا وحاضرا ومستقبلا، وأن الانتساب للتاريخ الإسلامي لا يعني مجرد الانتساب إلى تاريخ الأوطان فقط، إنما تاريخ الأوطان في ظل الإسلام جزء هويتنا الإسلامية، وقد بقي حنين النبي ﷺ إلى مكة موطنه يسري في عروقه وهو يشيد حضارة في المدينة المنورة وفي كل شبه الجزيرة العربية، وفي كل امتداد للإسلام.

إن أحداث السيرة النبوية بكل تفاصيلها، ابتداء ببعثته ﷺ، ودعوته السرية، ومرورا بالجهر بالدعوة والصدع بالحق، وصولا إلى الهجرة النبوية، وبداية التأريخ للإسلام من قبل ومن بعد، كلها محطات دالة على عظمة الإسلام، وعظمة الانتماء إليه، والاصطباغ بهويته.

كما أن الخصوصية التاريخية للهوية الإسلامية تستمدها من كون تاريخ الإسلام مرتبط بالدين عقيدة وشريعة، قبل أن يكون تاريخ دول ومعارك ونظم سياسية، لأن العقيدة هي التي أنشأت تلك الكيانات من الدول والمجتمعات[26]، فهو لا يتعلق بالشخصيات والأوطان فقط، بقدر ما هو متعلق بتاريخ الأفكار، وعليه إن المحور الأساس الذي يدور عليه انتماؤنا هو شخصية النبي ﷺ كونه المبلغ عن الله تعالى أصول العقيدة وتفاصيل الشريعة، وعلى الهوية الإسلامية أن تتمثل شخصية النبي ﷺ، بحكم منزلته في الرسالة الخاتمة، وكذا موقعه بين سائر النبوات السابقة، كونه الرسول الخاتم ذي الشريعة المصدّقة والمهيمنة، مصداقا لقوله ﷺ: "مثلي في النّبيين كمثل رجل بنى دارا فأحسنها وأكملها وأجملها وترك منها موضع لبنة، فجعل الناس يطوفون بالبناء ويعجبون منه، ويقولون: لو تم موضع تلك اللبنة، وأنا في النبيين موضع تلك اللبنة ".[27]

المطلب الثالث: الوحدة الثقافية.

من سمات الوحدة الثقافية للأمة الإسلامية الارتباط بروابط العقيدة في التصور والقيم الحضارية، كما أن من سماتها الانفتاح على كل الثقافات مع عدم الارتباط بأي جنس أو لون أو طائفة أو قومية أو لغة، ما دام الولاء للعقيدة الإسلامية.

ومع ذلك فإن السنة النبوية قد دعت إلى التمسك باللغة العربية ودعت إلى تعلمها وإتقانها كونها لغة القرآن الكريم ولسانه، إلى جنب إتقان سائر اللغات الأخرى ما دام المقصد هو تبليغ رسالة الإسلام، قال ابن تيمية:" اللغة العربية من الدين، ومعرفتها

فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهمان إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب".[28]

ومن أدلة وجوب تعلمها ما روي عن أبي عثمان قال: كان في كتاب عمر ﷺ:" تعلموا العربية "[29]، وعن أبي بن كعب ﷺ قال:" تعلموا العربية كما تعلمون حفظ القرآن".[30]

وفي ذلك بيان صريح بضرورة تعلم اللغة العربية وإتقانها، والحث عليها والمحافظة عليها، بل إن انحسارها لحساب أي لغة أخرى انسلاخ من الهوية الإسلامية، كونها تشكل اللسان الثقافي لهذه الهوية، بل إنه قد ورد النهي عن التشبه بالأعاجم في لغتهم وهجر لغة القرآن، فعن عمر ﷺ:" لا تعلموا رطانة الأعاجم ".[31]

قال الإبراهيمي وهو يذكر برسالة الجمعية وسعيها للحفاظ على اللغة العربية لغة الهوية الإسلامية، ويبيّن مخاطر ضياع اللسان العربي على الأمة، قال:" إن جمعيتكم هذه أُسّست لغايتين شريفتين، لهما في قلب كل عربي مسلم بهذا الوطن مكانة لا تساويها مكانة، وهما إحياء مجد الدين الإسلامي وإحياء مجد اللغة العربية. فأما إحياء مجد الدين الإسلامي فبإقامته كما أمر الله ... وأما إحياء مجد اللسان العربي فلأنه لسان هذا الدين والمترجم عن أسراره ومكنوناته، لأنه لسان القرآن الذي هو مستودع الهداية الإلهية العامة للبشر كلهم، لأنه لسان محمد بن عبد الله ﷺ صفوة الله من خله، والمثل الأعلى لهذا النوع الإنساني الذي هو أشرف مخلوقات الله، ولأنه لسان تاريخ هذا الدين ومُجَلّي مواقع العبر منه، ولأنه قبل ذلك وبعد ذلك لسان أمة شغلت حيّزًا من التاريخ بفطرتها وآدابها وأخلاقها وحكمها وأطوارها وتصاريفها في الحياة، ودولها في الدول، وخيالها اللامع الخاطف الذي هو أساس فنّها وآرائها في عالمي الكون والفساد.

وكلّكم يعلم أن هذا اللسان ضاع من بيننا فأضعنا بضياعه كل ذلك التراث الغالي النفيس من دين وتاريخ، وأن اللغة هي المقوّم الأكبر من مقوّمات الاجتماع البشري، وما من أمة أضاعت لغتها إلا وأضاعت وجودها، واستتبع ضياع اللغة ضياع المقوّمات الأخرى".[32]

كما أن للمعطى الثقافي للهوية الإسلامية انعكاس وامتداد على مستوى الجانب العملي من حياة الفرد المسلم وفق آليات ثابتة ودائمة، أسستها الشريعة لتبقى عناصر الوحدة وقوة الروابط والصلات بين الأفراد داخل الأمة الإسلامية، ومن ذلك دعوة السنة النبوية إلى المحافظة على الهوية الإسلامية على مستوى العادات والتقاليد ما لم تكن مخالفة للشريعة، وعدم التأثر السلبي والانغماس في هوية الآخر، فنهت السنة عن لباس المشركين مما هو خصيصة لهم دفعا للتشبه بهم

فعن أبي عثمان النهدي قال: كتب إلينا عمر ونحن بأذربيجان: يا عتبة بن فرقد! إنه ليس من كدك، ولا من كد أبيك، ولا من كد أمك، فأشبع المسلمين في رحالهم مما تشبع منه في رحلك، وإياكم والتنعم وزى أهل الشرك، ولبوس الحرير، فإن رسول الله ﷺ نهى عن لبوس الحرير.[33]

وفي لفظ: أتانا كتاب عمر ونحن بأذربيجان مع عتبة بن فرقد:"أما بعد فاتزروا وارتدوا، وانتعلوا وارموا بالخفاف، واقطعوا السراويلات، وعليكم بلباس أبيكم إسماعيل وإياكم والتنعم وزي العجم".[34]

فإذا كانت العلاقات الإنسانية هي التي تؤسس المجتمع، فإنه لا يتكون على الحقيقة بالأعداد الكبيرة من الأفراد مهما بلغوا، إلا في ظل شبكة العلاقات المعقدة بينهم، والتي تمثل شرط بناء المجتمع وحقيقته في آن. وبناء على هذا الأساس مثلت جملة الأحكام الشرعية المتصلة بالجانب الاجتماعي والمؤسسة لاستمرار ودوام الصلات

بين الفرد المسلم وبين غيره من أفراد المجتمع الإسلامي الذي يوحده الإيمان المشترك بالمقومات الأساسية للإسلام[35]، فشرّع بذلك لزوم التحية وإلقاء السلام بين أفراده ومبينا أحكامه، كونه جزءا من التعبد، ودعا إلى مخالفة غير المسلمين في صفة السلام وطريقته، كونه شعارا للهوية الإسلامية يتميز به المسلم عن غيره من بني أتباع الملل الأخرى، كما دعت إلى المحافظة على المحيط والبيئة ونظافتهما، لارتباط ذلك بثقافة المجتمع المسلم، وانعكاس البعد القيمي التوحيدي على المستوى الثقافي للفرد وسلوكه الاجتماعي. روى عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : "ليس منا من تشبه بغيرنا ، لا تشبهوا باليهود ولا بالنصارى، فإن تسليم اليهود الإشارة بالأصابع، وتسليم النصارى الإشارة بالأكف ".[36]

قال المباركفوري عن هذا الحديث:"والمعنى لا تشبهوا بهم جميعا في جميع أفعالهم خصوصا في هاتين الخصلتين ولعلهم كانوا يكتفون في السلام أو رده أو فيهما بالإشارتين من غير نطق بلفظ السلام الذي هو سنة آدم وذريته من الأنبياء والأولياء".[37]

أما بخصوص المحافظة على نظافة البيوت وتعطيرها روى الترمذي عن النبي ﷺ قال:" إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا -أراه قال- أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود".[38]

المبحث الثالث: ثنائية الكونية والخصوصية في الهوية الإسلامية.

نحاول في هذا المبحث بيان معنى الخصوصية والكونية للهوية الإسلامية، مع تحديد الاعتبار الذي تتسم به بالخصوصية والذي تتسم فيه بالكونية.

المطلب الأول: كونية الهوية الإسلامية من عالمية رسالة الإسلام.

تعني الهوية الانتماء الثقافي والحضاري للإسلام كدين بعقيدته وشريعته، ولقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون الإسلام خاتما ومصدقا ومهيمنا على سائر الأديان

الأخرى، وجرت حكمته أن يدعى إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، ولما كانت رسالة النبي ﷺ لا تقتصر على بيئة محددة ولا طائفة مخصوصة، بل هي رسالة عالمية، لقوله ﷺ:" أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة "[39]، ويقول ﷺ:" والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي رجل من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بي وبما أرسلت به إلا كان من أصحاب النار".[40]

والشاهد منهما بعثته إلى الناس كافة، فكل من انتسب إلى الإسلام بقيمه وأحكامه، مطلوب منه شرعا أن يلتزم مقتضيات الإيمان ولوازمه، وبالتالي يتمثل الهوية الإسلامية ويدعو إليها، قولا وعملا وسلوكا، فالكونية تقتضي المنافاة مع أي شكل من أشكال التعصب، عرقيا كان أم قوميا أم لغويا، فـ" الإسلام (كانتماء) هو القاسم المشترك الوحيد لأمة متكاملة كبرى ، ولا شيء غيره ... وإذا ما نحينا الإسلام جانباً ، فمن المستحيل أن نجد قاسماً مشتركاً آخر نتفق عليه وتلتقي عنده الأمة الإسلامية، فلا الأرض ولا اللغة ولا التاريخ يمكن أن تكون القاسم المشترك لأمتنا ، وذلك لأن الأرض واللغة والتاريخ تعتبر امتداداً للإسلام".[41]

فبمقتضى كونية رسالة الإسلام وعالميتها تكون الهوية الإسلامية كونية عالمية متميزة بخصوصيتها من حيث الانتماء للدين كمعيار أول لتحديد معالم هذه الهوية، ولا فرق بين المنتسبين إلى هذه الهوية مهما كانت لغاتهم أو أعراقهم أو ألوانهم، فالفارق يقدر بمدى تقوى الله تعالى والتعلق بتوحيده وعبوديته، فعن أبي نضرة قال حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق فقال:" يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على

عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى".[42]

المطلب الثاني: خصوصية الهوية الإسلامية، تميز للشخصية الإسلامية

تعني الخصوصية في الهوية التفرد والتميز بجملة من الخصائص المادية أو البشرية، تجعل من الهوية الإسلامية تفترق عن باقي الخصوصيات لدى الهويات الأخرى، ولعل ما يميز الهوية الإسلامية ارتباطها بخصائصها السالف ذكرها، وأول خصوصية تتسم بها الهوية الإسلامية هو الارتباط بعقيدة توحيد الله تعالى، والارتباط بالإسلام خاتم الأديان السماوية، وهذا الذي يعتبر الميزة الأساسية التي تجلي الخصوصية للهوية الإسلامية، وإن كانت الهويات الأخرى قد يكون منطلقها مرجعية دينية، إلا أن الهوية الإسلامية تتمايز بإلهية وسماوية المرجعية لارتباطها بالإسلام. والارتباط بمقام التّوحيد في تشكيل الهوية الإسلامية يولد فيها الحصانة الذّاتية لمواجهة أيّ من المتغيّرات الحاصلة في المجتمعات، والمؤثّرة على الشّخصية السّوية، ومن ثمّ دعت الضّرورة تنمية الشّعور بالرّقابة الإلهية للهوية الإسلامية واستحضار تعلّق النّفع والضّرر بالله الواحد الأحد، لتكون هذه الهوية في المحصّلة مهيّأة لتقبل أيّ نوع من البلاء بنفس مؤمنة مخلصة للخالق سبحانه وتعالى، وهذا ما يميز الهوية الإسلامية عن غيرها، عن ابن عباس قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوما، فقال:" يا غلام إني أعلمك كلمات؛ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف".[43]

وبما أن الهوية الإسلامية ترتبط وتتميز بمقام التوحيد، فإن ما يضمن خصوصية هذه الهوية هو الارتباط بالقيم والأخلاق من منطلق توحيدي إيماني، عكس الهويات الأخرى التي ترتبط بالقيمة المادية بالدرجة الأولى، وتجسيد المنفعة كمعيار قيمي، بينما

الهوية الإسلامية أساس اعتبار القيمة فيها هو الإيمان ابتداء، فالنبي ﷺ اعتبر أن الحياء وهو قيمة حضارية في المجتمع من شعب الإيمان، " الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان"[44]، والأحاديث التي تجعل من القيم الأخلاقية والسلوكية مرتبطة بالإيمان أكثر من أن تحصى، ولعل ارتباط الهوية الإسلامية بالقيم يجسد معنى كونيتها بحكم أن القيم والمبادئ من المشترك الإنساني، ولا يعني ذلك احتقار هوية المختلف أو رفضه، بل إن قيم الهوية الإسلامية تقبل الآخر وتحفظ له حقوقه وانتماءه الحضاري في ظل أحكام الشريعة الإسلامية.

وعليه يمكن القول إن العلاقة التي تربط بين خصوصية الهوية الإسلامية وكونية الهوية الإنسانية، هي علاقة تكاملية، مبنية على مبدأ التسامح، فهي في ظل الاختلاف والتنوع الحضاري تضمن التواصل بين الهويات الإنسانية.

الخاتمة

الهوية الإسلامية هي جملة الخصائص والمزايا التي تتميز بها الشخصية الإسلامية، ولقد بينت السنة الشريفة أهم معالم الهوية الإسلامية من خلال ارتباطها بأعظم الأديان وآخرها، ومن ثم كان لها من الخصوصية ما تتميز به عن سائر الهويات، ولعل ما تتميز نذكر ما يلي:

– ارتباط الهوية الإسلامية بعقيدة التوحيد، وجعل ذلك أهم ميزة لها، تنفرد بها، ولا تماثلها أي هوية أخرى، سواء خضعت لمرجعية دينية، أو أي مرجعية أخرى.

– ارتباطها بأحكام الشريعة الإسلامية في العبادات والمعاملات، والنهي عن التشبه بالهويات الأخرى حفاظا على تميز وخصوصية الهوية الإسلامية، فوردت الكثير من النصوص في النهي عن ذلك.

– ارتباطا بالقيم والمبادئ المنبثقة عن الشريعة الإسلامية، والتي تضمن لها الكونية

بحكم أن الكثير منها – أي القيم– مما يدخل ضمن المشتركات الإنسانية بين الهويات.

– تتميز الهوية الإسلامية بتعدد اللغات المنتمية إليها كونها لا تتعصب لأي لغة من اللغات مهما كان نوعها أو جنس من يتكلم بها، بما أن الأساس التي تشترك فيه كل اللغات هو الارتباط بمقام التوحيد والعبودية لله تعالى، وفي الوقت ذاته حافظت على اللغة العربية كونها اللغة الأم، ولغة الوحي، وهي الجامع المشترك بين جميع الثقافات المنتسبة للإسلام بعقيدته وشريعته.

– المحافظة على خصوصيات العادات الثقافية لكل المنتمين للإسلام طالما لا تخالف الشريعة، وهي بذلك تحافظ على الخصوصية في ظل الكونية، وهذا ما لم تصله هوية أخرى.

– كونية الهوية الإسلامية تنبثق عن عالمية الإسلام، وعليه فإن الدعوة إلى الإسلام دعوة إلى الهوية الإسلامية.

– تتأتى خصوصية الهوية الإسلامية من خلال ما تتميز به من خصائص، الانتماء للإسلام والوحدة الثقافية والخصوصية التاريخية.

وصلّى الله وسلم على سيّدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين.

ـ الحواشي والإحالات:

[1] – ابن منظور: لسان العرب، ط 3، 1414 هـ، دار صادر، بيروت، 316/6.

[2] – المصدر نفسه: 374/15.

[3] – ابن هشام: السيرة النبوية، ت طه عبد الرؤوف سعد، دط، شركة الطباعة الفنية المتحدة، 119/2.

[4] – الحاكم: المستدرك على الصحيحين، ت مصطفى عبد القادر عطا، ط1، (1411 هـ– 1990م)، دار الكتب العلمية، بيروت، 673/2، قال عقبه: " هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

[5] –عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، المؤسسة الغربية للدراسات، بيروت، ط1، 1984، ج2، ص529.

[6] – عبد الوهاب المسيري، من هو اليهودي، دار الشروق القاهرة، الطبعة الثانية، 2001 ص9.

[7] – جبران مسعود، الرائد معجم لغوي عصري، دار العلم للملايين بيروت، ط5، 1986، ج2، ص1580.

[8] – الشريف الجرجاني: كتاب التعريفات، ت جماعة من العلماء بإشراف الناشر، ط1 (1403هـ -1983م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 257.

[9]– رشاد عبد الله الشامي: إشكالية الهوية في إسرائيل، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، أغسطس 1997، ص07.

[10]– عبد الوهاب المسيري: من هو اليهودي، ص09-11.

[11]– رشاد الشامي: إشكالية الهوية في إسرائيل، ص07.

[12]– رشاد الشامي: المرجع السابق، ص7.

[13]– يوسف العايب: إشكالية الهوية، مذكرة ليسانس، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2004م.

[14] – ابن حزم الأندلسي: الفصل في الملل والأهواء والنحل، دط، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2/107.

[15]– جعفر شيخ إدريس: المواطنة والهوية، مجلة البيان، ع 211، ص 09، نسخة المكتبة الشاملة.

[16]– حاكم المطيري: المحافظة على الهوية الإسلامية في ضوء السنة النبوية
http://www.dr-hakem.com/portals/Content/?info=TmpJM0psTjFZbEJoWjJVbU1RPT0rdQ==.jsp

[17] – أحمد بن حنبل: المسند، ت شعيب الأرناؤوط، عادل مرشد، وآخرون، إشراف عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، (1421 هـ - 2001 م)، مؤسسة الرسالة، 38/474.

[18] – مسلم: الصحيح، ت محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1/134.

[19]– البخاري: الجامع الصحيح، ت مصطفى ديب البغا، ط3، (1407 هـ- 1987م)، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، 6/2669.

[20]– الترمذي: السنن، ت إبراهيم عطوة عوض، ط2، (1395 هـ - 1975 م)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 5/57.

[21]– أبو داود: السنن، ت شعيب الأرناؤوط، مَحَمَّد كامِل قره بللي، كتاب الصلاة، باب بدء الآذان، دار الرسالة العالمية، ط1، (1430 هـ - 2009 م)، 1/369.

[22] – المصدر نفسه: كتاب الصلاة، باب الصلاة في النعل، 1/486.

[23]– روى ابن خزيمة في الصحيح عن نافع قال: رآني ابن عمر وأنا أصلي في ثوب واحد، فقال: ألم أكن أكسك ثوبين؟ قال، قلت: بلى، قال: أرأيت لو أرسلتك في حاجة أكنت منطلقا في ثوب واحد؟ قلت: لا. قال: فالله أحق أن تزين له. ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إذا لم يكن لأحدكم إلا ثوب واحد فليشد به حقوه، ولا يشتمل به اشتمال اليهود".- صحيحُ ابن خُزَيمة: ابن خزيمة، ت محمد مصطفى الأعظمي، كتاب الصلاة، باب الرخصة في الصلاة في بعض الثوب الواحد يكون بعضه على المصلي، وبعضه على غيره، ط3، 2003 م)، المكتب الإسلامي، 1/398.

[24] – في الحديث عن عمرو بن العاص، أن رسول الله ﷺ قال:" فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب،

أكلة السحر". – مسلم: الصحيح، كتاب الصيام، باب فضل السحور وتأكيد استحبابه، واستحباب تأخيره وتعجيل الفطر، المصدر السابق، 770/2.

[25] – في الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:" لا يزال الدين ظاهرا ما عجل الناس الفطر، إن اليهود يؤخرون". – النسائي: السنن الكبرى، ت حسن عبد المنعم شلبي، كتاب الصيام، الترغيب في تعجيل الفطر، ط1، (1421 هـ – 2001 م)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 370/3.

[26]– محمد أمحزون: منهج دراسة التاريخ الإسلامي، ط1، (2011م)، دار السلام، القاهرة، ص 24.

[27]– الترمذي: السنن، أبواب المناقب، المصدر السابق، 586/5. قال الترمذي عقبه:" هذا حديث حسن صحيح غريب".

[28]– ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم، ت ناصر عبد الكريم العقل، ط7، (1419هـ – 1999م)، دار عالم الكتب، بيروت، 527/1.

[29]– ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله، ت أبي الأشبال الزهيري، ط1، (1414 هـ – 1994)، دار ابن الجوزي، السعودية، 1132/2.

[30]– ابن أبي شيبة: المصنف، ت كمال يوسف الحوت، ط1، 1409هـ، مكتبة الرشد، الرياض، 116/6.

[31]– عبد الرزاق الصنعاني: المصنف، ت حبيب الرحمن الأعظمي، ط2، 1403هـ، المكتب الإسلامي، بيروت، 411/1.

[32]– آثار محمد البشير الإبراهيمي: جمع وتقديم، أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997م، 134/1.

[33]– مسلم: الصحيح، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء، وخاتم الذهب والحرير على الرجل، وإباحته للنساء، وإباحة العلم ونحوه للرجل ما لم يزد على أربع أصابع، 1642/3.

[34]– ابن حبان: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، ت شعيب الأرناؤوط، كتاب اللباس وآدابه، ذكر الإباحة للمرء أن يكون مطلق الإزار في الأحوال، ط2، (1414هـ – 1993م)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 268/12.

[35]– سمير بو دينار: الأمة الإسلامية، مفهوما وخصائص، مجلة حراء، السنة الأولى، ع01، السنة 2005م، ص 49.

[36]– الترمذي: السنن، أبواب الاستئذان والآداب، باب ما جاء في كراهية إشارة اليد بالسلام، 56/5، قال الترمذي:" هذا حديث إسناده ضعيف"، وحسنه الألباني.

[37]– المباركفوري: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، دط، دار الكتب العلمية، بيروت، 392/7.

[38]– الترمذي: السنن، أبواب الآداب، باب ما جاء في النظافة، 111/5.

[39]– البخاري: الصحيح، أبواب المساجد، باب قول النبي ﷺ (جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا)، 168/1.

[40]– مسلم: الصحيح، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته، 134/1.

[41] – عمر عبيد حسنة: فقه الدعوة – ملامح وآفاق، سلسة كتاب الامة، 1408هـ، 1/ 72.

[42]– أحمد: المسند، 474/38.

[43]– الترمذي: السنن، أبواب صفة القيامة، 667/4، وقال عقبه: هذا حديث حسن صحيح. قال الألباني في تعليقاته (سنن الترمذي: تعليق الألباني، عناية مشهور بن حسن آل سلمان، ط1، دار المعارف، الرياض، ص 567): صحيح.

[44]– البخاري: الصحيح، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، 12/1.

Identity, And Argument privacy, and Cosmic

Dr. Akram Belamri
Echahid Hamma Lakhdar University, El-Oued-Algeria

Abstract:

This topic talks about the features of Islamic identity through the texts of the Sunnah , and shows its relevance to Islam; Akuda and Sharia. And distinguish between the historical privacy of the Muslim community and its cultural unity.

These factors guarantee the privacy of the Islamic identity, the unity and cohesion of society.

Keywords:

The Sunnah of the Prophet; Islamic Identity; Cosmic;Privacy.